العرب
الخميس 2019/09/12
السنة 42 العدد 11465

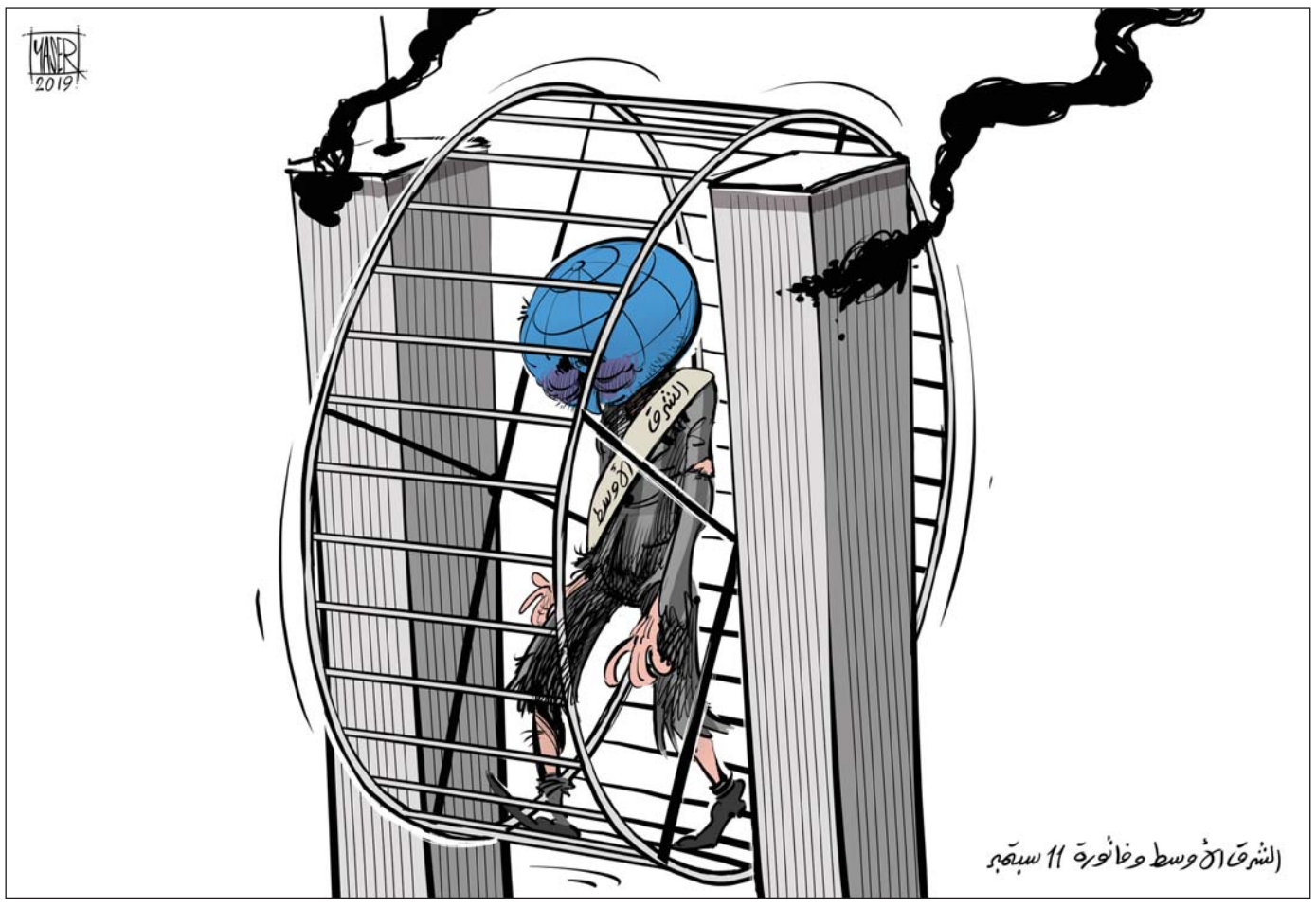

أوراق أردوغان المحروقة

بهاء العوام
صحافي سوري

بكثير من الأهمية تناقل الإعلام العربي أخبار أول دورية أميركية تركية مشتركة شرق نهر الفرات في الشمال السوري. اعتبرت الدورية خطوة على طريق إنشاء المنطقة الآمنة التي يحلم بها الرئيس التركي رجب طيب أردوغان، لكن هذا الحلم، كأحلام كثيرة غيره، تحول إلى ورقة محروقة في سياسات السلطان.

آخر انتصارات أردوغان كان تحويل نظام الحكم في بلاده من البرلماني إلى الرئاسي منتصف عام 2018. زادت صلاحياته فتضخمت عنجهيته حتى نضب تأثير كفه الممدودة بأربعة أصابع، ليس فقط على الأتراك وإنما على كل معجب بأردوغان. انقلبت الموازين وتحولت نقاط قوة الرئيس إلى مكامن ضعف.

لقد تأخر تحريك الدورية الأميركية التركية كثيرا، وتأخرت معه المنطقة الآمنة. لم تعد تمثل هذه المنطقة شيئا بالنسبة للاجئين السوريين. هم يدركون أنها للأتراك وليست لهم، ولن يكون استقدامهم إليها إلا رحلة حرب تشبه "سفر برلك" الذي اقتيد فيه السوريون وعرب غيرهم، ليقاتلوا في سبيل الدولة العثمانية.

لا يبحث عن أمان اللاجئين من يطردهم ويعيدهم إلى بلادهم عنوة. لا تعني وحدة سوريا وسلامة أراضيها شيئا لمن يحتل عفرين. لا يريد إنهاء الحرب في سوريا من يدعم جبهة النصرة والإخوان المسلمين، ولا يكترث لحياة اللاجئين من جعلهم ورقة ضغط وتهديد يلوّح بها في وجه الأوربيين كلما توترت علاقته بهم.

في ورقة اللاجئين تحديدا، فإن الأوروبيين لم يعد يقلقهم ذلك التهديد التركي بفتح الأبواب أمام السوريين الراغبين في القدوم إلى القارة العجوز. احتاطوا للأمر عبر إجراءات عدة. وإلى حين انتهاء الأزمة السورية فيمكن شراء صمت أردوغان ببضعة مليارات من الدولارات سنويا. هذه المليارات تزيد من رصيد خزينة أردوغان قليلا، ولكنها تقضم كثيرا من فرص تصالحه مع الاتحاد الأوروبي وانضمامه للتكتل.

بشكل عام يمكن القول إن ورقة دعم أردوغان للثورة السورية احترقت بالنسبة للاجئين وللداخل التركي وللعالم أجمع. كما احترقت ورقة حربه على الإرهاب شمال سوريا. إرهاب داعش الذي يحاربه العالم كله، وإرهاب الأكراد الذي لا يحاربه سوى أردوغان رغم تصنيف حزب العمال الكردستاني على قوائم الإرهاب الدولية. في محاربة الإرهاب خسر أردوغان ثقة الأتراك، وتعمقت خسارته بعدما استباح البلاد في ما أسماه ملاحقة الانقلابيين المتآمرين مع منظمة الداعية المعارض فتح الله غولن. الجميع في تركيا بات يعرف أن أردوغان استغل محاولة الانقلاب الفاشلة في منتصف عام 2016 لتطهير البلاد من معارضيه، وليس من الانقلابيين.

قادة حزب أردوغان، حزب العدالة والتنمية، يعرفون أكثر من غيرهم حجم الإرهاب الذي مارسه السلطان وهو "يكافح" الإرهاب. تهديد الرئيس الأسبق للحكومة أحمد داود أوغلو بفضح تجاوزات أردوغان في إدارة أمن البلاد، يدلل على ذلك بوضوح وربما نصحو يوما على نبأ اغتيال داود أوغلو بسبب هذه التهديدات.

الحقيقة أن استبداد رجب طيب أردوغان أشعل الحرائق في جميع أوراق سياساته الداخلية والخارجية، فخسر ورقة نمو الاقتصاد وورقة "صفر مشاكل" في علاقاته الخارجية، كما أن فساد بطانته وعائلته أزكم أنوف الأتراك، وقاد حزبه إلى خسارة الانتخابات البلدية الأخيرة في مدن عدة على رأسها إسطنبول وأنقرة.

في الاقتصاد تسببت نرجسية أردوغان بتراجع العملة الوطنية وهروب الاستثمار الأجنبي. معدلات النمو التي كانت تسجلها البلاد في العقد الأول من الألفية الجديدة انقلبت إلى تراجع، وما زاد الطين بلة العقوبات الأميركية على قرارات سياسية لأردوغان أراد بها مواجهة دونكيشوتية مع الولايات المتحدة.

سياسة الدولة المتصالحة مع محيطها الإقليمي والدولي التي كان يتغنى بها حزب العدالة والتنمية انتهت. نسج أردوغان لنفسه عداوات تمتد في جهات الأرض الأربع، ولم تعد تسمع في خطبه إلا التهديد والوعيد لدول أو أحزاب وأشخاص، وكأن العالم يتربص بتركيا ويحوك مؤامرات كونية ضد أردوغان ليل نهار.

بالنسبة لقائمة الأصدقاء والحلفاء فيفضل أردوغان لغة الابتزاز في الحوار معهم، وهذا يبدو منطقيا باعتبار أن هذه القائمة القصيرة تضم إما دولا ضعيفة تبحث عن الحماية لدى الأتراك، وإما دولا ترتبط معها تركيا بمصالح مؤقتة خلقتها ظروف استثنائية ولا تؤسس لتحالفات استراتيجية طويلة الأجل.

ورقة دعم أردوغان للثورة السورية احترقت بالنسبة للاجئين وللداخل التركي وللعالم أجمع. كما احترقت ورقة حربه على الإرهاب شمال سوريا. إرهاب داعش الذي يحاربه العالم كله، وإرهاب الأكراد الذي لا يحاربه سوى أردوغان

الحرائق التي اشتعلت في سياسات أردوغان اتسعت رقعتها هذا العام وباتت السيطرة عليها أمرا بغاية الصعوبة. التهمت الحرائق قدسية السلطان المزعومة ونالت من أعمدة حزبه الذي يحكم البلاد منذ عام 2002. أدرك العديد من قادة الحزب أن سفينة أردوغان بدأت تغرق ومن ينجو بنفسه قد تكتب له حياة سياسية أخرى، فتوالت الاستقالات والانقلابات. وبدل أن يصحو السلطان من أوهام استرداد زمن الإمبراطورية العثمانية ويعيد ترتيب البيت الداخلي لحزبه، أعلن الحرب على المنشقين وطرد من كان يوما رفيق دربه وصانع أمجاده.

ينتظر أردوغان ما هو أسوأ عندما تولد أحزاب جديدة منافسة له على يد رفاق الأمس الذين أبعدهم أو حاربهم أو غدر بهم في حزب العدالة والتنمية. هذه الأحزاب الجديدة ليست فقط ستصيب حزبه بالوهن، وإنما ستنسج تحالفات مع المعارضة تسحب الأكثرية النيابية من أردوغان وتضع حدا لسلطانه وحكمه.

أحزاب المعارضة تبدو مستعدة تماما للتحالف مع الشيطان ضد أردوغان، وقد بدأت حربها ضده منذ الانتخابات البلدية الأخيرة. وبعد أن تسلمت العمل في البلديات التي ظفرت بها في الانتخابات، ضيقت الخناق على أردوغان الخناق وفرضت عليه قوانينها في السياسة الداخلية. أول الغيث كان بإجباره على مجاراتها في طرد اللاجئين السوريين من المدن وإنهاء سياسة الباب المفتوح أمام اللاجئين. أما الخطوة الثانية فكانت فتح ملفات الفساد لأفراد عائلة أردوغان وأزلامه في السلطة.

لم تعد لأردوغان إلا بضع أوراق مهترئة في السياسة الخارجية لا تسمن ولا تغني من جوع. من بينها ذلك الشريط الأمني الذي يقاتل، ليل نهار، من أجل رسمه في الشمال السوري. يدرك أردوغان أن الأميركيين لن يسلموه شرق الفرات إلا بحرب عالمية أو بمعجزة تجعل واشنطن زاهدة بأي تواجد لها في الشرق الأوسط. السلطان بات يقارع خصومه بأنفاس متعبة، وقد عاد ليكون مرة أخرى رجل أوروبا المريض، لكن هذه المرة ليس بسبب حروب شُنّت عليه من الخارج، وإنما نتيجة معارك افتعلها بنفسه ضد الداخل والخارج، وخاضها بعقلية الإسلام السياسي الذي لا يعرف العيش دون أعداء مهما جنى من مكتسبات في حالة السلم.

إيران وسوريا.. عدوتان قاربَت بينهما المصالح

علي قاسم
كاتب سوري
مقيم في تونس

بمرور الوقت، ظن الجميع أن العلاقة بين إيران وسوريا، وبين سوريا وحزب الله، هي علاقة ودّ وحب من النظرة الأولى، إلا أن الحقيقة غير ذلك، فالصداقة تحجب عداوة قديمة، وهي صداقة، كما كل الصداقات السياسية تحكمها المصالح.

في السياسة الأصدقاء يتبدلون، وكذلك الأعداء، واليوم هناك بوادر لإنهاء زواج وصفه كثيرون بالكاثوليكي بين دمشق وطهران، وبالتالي التمهيد لقطع العلاقة مع حزب الله.

هل دمشق مستعدة، بعد أن حققت نصرا على الجماعات الإرهابية، لأن تقع تحت سطوة ميليشيات إيرانية تناوش إسرائيل لتحقق مكاسب سياسية لملالي إيران، الذين أساءهم استفراد روسيا بالقرار السياسي السوري، في محاولة استنساخ للسيناريو الذي لعبه حزب الله في لبنان لصالح المدّ الإيراني.

التحذيرات التي أطلقها المبعوث الأميركي الخاص إلى طهران، براين هوك، منذ يومين تأكيد على أن الدور الإيراني في المنطقة أصبح مكشوفا للجميع، حيث نبه إلى مخاطر التمدد الإيراني وسعي إيران إلى استنساخ التجربة اللبنانية في اليمن، وشدّد على وجوب منعها من ترسيخ نفوذها هناك، بالتوازي مع تقييد توسعها في لبنان وسوريا والعراق.

من المفيد أن نسترجع بعضا من التاريخ، في عام 1978، عندما أبعد آية الله الخميني عن العراق، وكان قد أمضى فيها 13 عاما مقيما في مدينة النجف، عرض الرئيس السوري حافظ الأسد استضافته في دمشق، لكن الإمام رفض تلبية الضيافة السورية، واختار الذهاب إلى فرنسا، حيث أقام لمدة 112 يوما في مدينة تشتهر بصناعة الكونياك، هي نوفل لوشاتو.

لم يكن لدى الخميني مانعا في أن يسمع أجراس الكنائس بدلا من صوت الأذان. تركيزه كان في أمر آخر يجري داخل إيران، التي كانت تشهد ثورة أطاحت بنظام الشاه، في انتظار اللحظة المناسبة التي يعود فيها إلى طهران معلنا ولاية الفقيه، قاطفا ثمار ثورة لم يشارك فيها. ويتساءل البعض لماذا فضل الخميني الإقامة في نوفل لوشاتو، ولم يختر الحياة إلى جوار السيدة زينب في دمشق.

لا أحد يستطيع أن يقدم جوابا قاطعا على السؤال. هناك عدة إجابات، بعضها يعزو ذلك إلى خشية الخميني على حياته من عملاء السافاك (الشرطة السرية في عهد الشاه). وإجابات تعزو ذلك إلى الصورة السلبية التي لحقت بالنظام السوري إثر تدخله في لبنان، عام 1976، لمصلحة المسيحيين ضد المسلمين والفلسطينيين. ولا تستبعد الإجابات أن يكون للمواجهات التي حصلت بين الإخوان المسلمين والحكومة السورية دور في ذلك. ومهما تكن الإجابة، ليس صحيحا أن دوافع مذهبية هي التي حكمت مسار العلاقة بين النظامين. وتبقى الحقيقة، أن ما يفرق بين نظام الخميني الثيوقراطي، والنظام العلماني السوري، أكبر مما يجمع بينهما.

هل يمكن أن ننسى موقف حزب الله المؤيد والداعم لإمارة طرابلس الإسلامية، عندما قام بخطف رهائن سوفييت عام 1985، وهدد بنسف السفارة السوفييتية، لإحراج سوريا، في حادثة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البعثات الدبلوماسية السوفييتية إلى الشرق الأوسط؟

حينها تبنت عملية الاختطاف منظمةٌ غير معروفة، أطلقت على نفسها اسم "قوات خالد بن الوليد". وأصدر الخاطفون بيانا جاء فيه أن الروس، أعداء الإسلام يتحملون المسؤولية عن فظائع حليفتهم سوريا، التي شنت الحرب على أشقائنا المسلمين في محيط مدينة طرابلس، في شمال لبنان. وعلى موسكو أن تضغط على دمشق لوقف العملية العسكرية السورية.

وبعد صمت طويل كشفت موسكو عام 2016، أن عماد مغنيّة، المسؤول عمّا كان يسمى "الجهاد الإسلامي" في حزب الله، هو من كان يقف وراء خطف الدبلوماسيين السوفييت في بيروت، وليس جماعة سنيّة جهادية، كما أشيع حينها، وأن محمد حسين فضل الله، المرشد الروحي السابق لحزب الله، كان هو الآخر قد تورّط في عملية الاختطاف.

حدثت أكثر من مواجهة بين حزب الله وبين سوريا وحركة أمل، قام الحزب على إثرها بالسيطرة على مناطق تابعة لحركة أمل، بدءا بإقليم التفاح وصولا إلى بعلبك. وشهدت تلك الفترة حدوث تصادم دموي بين الحزب والقوات السورية، بدأ باشتباكات في البقاع، ليبلغ ذروته في ثكنة فتح الله في محلة البسطة، فبراير 1987، عندما أقدم السوريون على إعدام أكثر من عشرين مقاتلا لحزب الله. انتقل بعدها مقر الحزب إلى مواقع سرية في الضاحية الجنوبية، وحمّل حزب الله، في بيان، الجانب السوري المسؤولية بشكل واضح.

إثر ذلك تخوف حزب الله من حصار سوري على الضاحية، وهذا ما دفع إيران إلى التدخل، معتبرة سلامة الحزب شرطا لعلاقاتها مع دمشق، ورأى البعض أن هذا الشرط هو ما حدد لاحقا تطور الحزب ليصل إلى ما هو عليه بقيادة حسن نصرالله.

وكان حزب الله قد تأسس في أوائل الثمانينات، كجزء من محاولة إيرانية لتجميع قوى شيعية لبنانية مسلحة تحت سقف واحد، وتم تدريب قواته وتنظيمها من قبل وحدة من عناصر الحرس الثوري، دخلت لبنان قادمة من إيران بإذن من الحكومة السورية.

في الوقت الذي ظن فيه ملالي إيران أنهم أمسكوا خيوط اللعبة وأن الأمر استتب لهم، وأن مشروعهم أصبح قابلا للتحقيق جاءتهم الصدمة من أكثر من طرف.

وهذا يفسر حرص الولايات المتحدة الأخير على منع إيران من امتلاك السلاح النووي، واختار الرئيس الأميركي، دونالد ترامب، مواجهة الموقف بالضغوط الاقتصادية، فارضا لحصار متصاعد عليها، ولم يستبعد الخيار العسكري إن اقتضى الأمر.

بوادر التمرد على السيطرة الإيرانية في العراق تلوح اليوم، حيث تحولت مناسبات دينية، مثل عاشوراء ومواكب ذكرى الإمام الحسين، إلى منبر للاحتجاج ضد الفساد الحكومي والديني الذي تباركه إيران. وبدت الصحوة الخليجية في التعامل مع مشكلة اليمن، من حرص دول التحالف العربي؛ الإمارات والسعودية ومصر والبحرين، على المضي إلى أبعد مسافة لمنع التمدد الإيراني في المنطقة.

وفي لبنان، يعلم حزب الله اليوم أن استمرار سيطرته على الحكومة سينتهي بلبنان بلدا مفلسا، يمتنع الجميع عن تقديم المساعدة له، وبالتالي يعجز الحزب عن تمويل ميليشياته التي ستنقلب على بعضها، ولن يمنعها شيء من الانقضاض على الرؤوس الكبيرة.

وقضى الموقف الروسي الداعم للنظام في سوريا، ونجاح الجيش السوري في القضاء على المجموعات الإرهابية، على أحلام طهران، ولا يبدو الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بموقع من لديه الاستعداد للسماح لدولة أخرى أن تقطف ثمار جهوده.

ساهمت دمشق، سواء عن حسن نية أو سوء نية، في تسلل ملالي إيران إلى لبنان، وقدمت لهم دعاية مجانية مهدت لهم السيطرة عليه، عن طريق وكلائهم ممثلين بحزب الله، الذين استغلوا مشاعر الشارع العربي المتعاطف مع الفلسطينيين والمعادي لإسرائيل.

البحث عن حلفاء لمواجهة أعداء وهميين، أدّى بدمشق إلى ارتكاب أخطاء فادحة، ما زال لبنان يعاني منها، وما زالت دمشق تدفع ثمنا لها.

لم تكن طهران يوما صديقا حقيقيا لدمشق، بل لا يمكن أن تكون هذا الصديق أو الحليف، وهي الآن ورقة محروقة، يجب التخلي عنها. وهذا في الغالب سيعمل لمصلحة الشعب الإيراني، الذي دفع غاليا ثمن مغامرة رجال الدين الإيرانيين، فقد يساهم في أن يعرف الملالي حجمهم الطبيعي، ويتوقفون عن إثارة الفتن.

إيران وسوريا عدوتان ألّف بينهما عدو وهمي مشترك. والسوريون ليسوا مدينين للإيرانيين بشيء، وإن وفرت لهم طهران الحماية لبعض الوقت، فهي حماية باهظة الثمن حان وقت طرحها جانبا.